ذات يوم بارد

قصة بقلم عبد الستار ناصر

حين بدأت أعشق النساء ، وأحلم بعيونهن السوداء ، كان وجهي يتعرض لهذا المرض ، ليبدو بشعا ، مثل اطار متآكل ، تنام بين مساماته عروق منفوخة كالديدان البيضاء ، وتحشوه نتوءات مدببة يتخمها الدم الفاسد ، وتقعرت جفوني حتى بدت كفراغ مظلم بجمجمة محنطة ، وبانت عيوني بين بقية أجزاء وجهي كشيء مفروس ، ومهمل دون تنسيق .

كنت لوحدي أفكر : أن ثمة ما يشلني في أعصابي ، لهذا وجدت نفسي يوما بعد آخر ، بعد آخر ، أغرق في عزلتي ، أهرب من أصدقائي ، ثم أهرب من محلتنا ومقهانا ، وكان طبيعيا أن أترك النساء ، قبل أن أحب واحدة منهن ، وأخجل .

وجلست ذات يوم بارد في حديقة منزلنا ، وأمي تعد طعام العشاء، وكنت أقرأ في «مسخ كافكا» (*) ، وكان لحدته وقسوة شكله، يجعلني أحس بأن حكاية وجهي تتهشم عند سطور مسخه ، وان ما يخذلني ويؤطر وضعي بالرهبة ، يمكن تبريره بحيث أهدأ ، وأنام .

كنت أنظر في وجه أمي ، وأعرف انها تحاول أن تبعد عني بعض ما أحسه ، وكانت لسذاجتها تفشل ، وكنت أخاف صمتها الذي يمزق في داخلها كل شيء ، وكنت أبكيها أكثر مما أبكي نفسي . وشددت على عيوني ، ورميتها بين الاوراق ، حتى جاء دارنا صديق ، أخبرته أمي بأني غير موجود ، واني لم أعد أجيء الى المنزل ، ثم صدقها وانصرف ، وأغلقت الباب ، لتنزوي في مطبخها تعد لنا العشاء.

كنت حينها أمد ساقي على الجدار ، وأترك الساق الثانية فوق أرض الحديقة ، حيث أحس بارتياح لهذا ، وما كنت أعرف ان جارتنا (حنان) تتلصص من سطح منزلها الى وجهي ، وكانت قد تجاوزت العشرين من شبابها دون أن يلاحظها رجل ، أو يفكر انها شبه عانس متروكة بلا عناية .

وكان أن رفعت رأسي ذات صدفة ، فوجدتها تضم رأسها خلف الجدار بسرعة كادت أن تجعلني أغفلها ، وشعرت بشيء يشبه الغضب ، ولم أقل لأمي ، كما تجاهلت حنان ، وتعمدت أن أظل في مكاني ، حتى اني لم أستطع تفسير هذا ، وتركت لها أن تجرب من جديد ، وكنت أعرف انها ساذجة العقل .

كنت قبل اصابتي بأمراض وجهي أراها وهي تعلق الثياب ، كما أبصرتها حين مرت ذات صباح الى سوق المحلة ، ولم أحاول ذات مرة أن أتابعها أو أضم لها رسالة ، ربما لانها أكبر مني سنا !

ولما سمعت من أمي ان أصدقاء أبي سيأتون دارنا يوم الجمعة ، تلمست ـ توا ـ عدد هذه الساعات التي أحبس فيها نفسي ، وكمية الضجر الذي ساعانيه ، وكان وجه أمي يحصر بين مساماته كمية أخرى من الخوف والشفقة ، حتى اني كدت أصرخ في وجه أبي بألا يدعو أحدا الينا .

وحين بدأت أرسم في خيالي مجيء بعض الغرباء ، كرهت أن أستمر في القراءة ، ورميت برأسي الى الوراء ، ورأيت حنان للمرة الثانية ، لكنها ظلت تراقبني بحدة دون أن تضم رأسها عني . ولم أصدق ، ولم أصدق أيضا ، وتمنيت لو رأتني أمي ، لكان في ذلك ما يسرها ويبعد عنها بعض الخوف والكآبة ، وكانت أمي ترى ذلك دونما أشعر ، مما دعاها لان تخرج من دارنا ذات لحظة وهي تقول بأنها ستعود بعد قليل . وفرحت بهذا ، وأعطيت نفسي فرصة لحب حنان ، ونسيت انها أكبر مني ، وانها نحيفة ، وساذجة ، وانها لا تثير بقية الرجال ، حتى سمعتها تهمس في بحة مخنوقة :

ـ ماذا تقرأ ؟

قلت لها مع ضحكة خبيثة :

ـ عنتر وعبلة .

وكأنها لم تصدق ، فقد وجدتها تضحك ، وحيث راحت تتلفت حولها ، تخاف أن يصعد عندها أحد ، حتى قلت لها ، كأني أسخر منها :

ـ هل تحبين عبلة ؟ كانت سمراء ، وقوية .

ـ وعنتر كان أسود ، وأحبته عبلة ، وكان قاسيا مع غيرها ، ولكنه طيب معها .

وانخرط عند الجدار ما يشبه الدموع ، وكانت حنان تتوجع في صمت أحسه ، وأغفله ، بقسوة ، وكنت طيبا رغم هذا ، وبدأت أثير فيها نزوعا شبقا الى قصص الحب والزواج ، حتى ظننت بأني أسخر من نفسي ليس غير ، وأعطيت عيوني الى أرض الحديقة ، تاركا فوق رأسي حنان تمسك بين عيونها بقية احساس بأنها ستبكي ، وانها ستبكي بحرقة .

ولما عادت أمي ، تراجعت حنان الى داخل بيتها ، تنوء بثقل الرغبة في شريك لها ، ثم انتهيت أنا الى الصفحة التالية من ـ كافكا ـ وأنا أتكور في مقعدي مثل سلحفاة تنام ، وسألت أمي عما اشترته من السوق ، ولم تكن قد اشترت أي شيء ، وكنت حينها قد انتهيت الى فكرة رحت أقولها ـ لامي ـ بوقاحة :

ـ فكرت بأنه : سيراني أصدقاء أبي ، وسوف أقدم الشاي بنفسي .

ـ ... ؟

ـ وسوف أذهب اليوم الى المقهى ، كما سأزور أقاربي .

ـ ... ؟

ـ وأظنني أتأخر .

وبقيت أثرثر ، وثمة احساس بالكآبة يعلوني ، حتى بكيت ، ولم أذهب الى المقهى ، ولم أزر أقاربنا . ولم أعد أحس بأني انسان ، وانتظرت أن تبكي أمي أيضا ، لكنها لم تبك وشعرت برهبة صمتها ، ونظرت في عيونها ، وكانت تموت بين يدي بلا صخب ، وبينما حاولت أن أصدق انها تموت بهذه البساطة ، كنت أبصق في عيوني ، وأجن .

ولم يكن أبي رجلا طيبا ، كان قد وزع حبه لاكثر من واحدة ، وكان يرفع جثة أمي ويمضي بها ليدفع المبلغ في تأفف يشوبه شيء من الحزن والبكاء ، وفي عيونه يطل أكثر من معنى يردد انه سعيد ، وان هناك متعة جاهزة ، وجديدة ، وان أمي مجرد أنفاس تخفت .

وزادت كراهيتي لنفسي ، وعشقت الصمت في حديقة منزلنا ، وكان أبي يتزوج مثل كلب قميء متشرد ، ولما نهرته ذات صدفة عابرة ، قال لي بقساوة :

ـ تف ، أيها المشوه البشع .

واحترقت لعدة أيام ، وكاد رأسي ـ حينها ـ يتوزع بين صوته ، وكراهيتي لنفسي ، وكنت أفكر في نهاية لنفسي ، بهدوء ، لكن ثمة همسة مبحوحة أسمعها من حنان ، تجعلني أغفل عن نفسي ، وأقول لها :

(*) رواية للروائي كافكا ، يتحول فيها غريغور سامسا ـ البطل ـ الى حشرة كبيرة .

ـ أمي ماتت ، وأصبحت بعدها أموت في كل لحظة .

وسمعتها تقول ، كأن حزنها أكبر :

ـ اذن أمك ماتت ؟

ولم أكن أحس حبا ، وكنت أنظر في عيونها ، وأحزن ، ولم أكن أكلمها بالضبط ، لما قلت بصوت هادىء :

ـ وأنا أموت فعلا .

وكان في عيونها ظل محترق من الكآبة ، وكان على رأسها شعر أشعث لم تربطه كبقية الفتيات ، وحزنت لانها عانس ، وكدت أفكر في الزواج منها لولا وجهي ، ولولا اني بلا عمل ، وكنت أرغب في حبها ، وأرغب في حبها بقسوة ، وحاولت أن أردد فكرة الزواج في حديثنا الحزين ، حيث قلت لها ، كأني أساومها :

ـ لو فكرت بالزواج منك ، أتراك ... ؟

ولم أقل غير هذا ، حيث راحت تزف عيونها في شبق غريب الى عيوني ، تكلمني عن ذلها ، وعن الرجال ، ثم عن عيوبها الصغيرة ، وكنت أهز في أعصابها مجرد فكرة ذبلت ، ودنيا تموء بانكسار وحيرة ، وتمنيت أن أعود لوجهي ، وأعمل .

وكنت أرسم حيرتي مثل فيل عجوز يقع ، وأنظر في وجه حنان وارسمها كذبابة تطن في بيت عنكبوت ، وأمسك رأسي لئلا أجن ، ثم أبكي نفسي ، وأبكي حنان ، وربما كنت أحس بما يدور في رأسها ، فاغفل عنها حتى أخجل ، وأعود مثل قط جائع ، ألتمس فيها بقية حب تكدس في عيون فتاة عانس .

كنت أحمل حزني ، وكان يثقلني ، وبات في نهارنا حديث طويل ، يحمل في كلماته الخائفة بعض ما أحسه وما أعانيه ، وما كان وجهي ليشفى ويهدأ ، الا اني أكون أكثر ارتياحا حين يمد الليل سواده فوق جبهتي وعيوني ، ورغم اننا تركنا حكاية الزواج ، فقد ظلت في حياتي حنان ، وتناست ان شبابها يموت عاما بعد عام ، وكنت أعشقها في غباوة وصمت ، ولم أعد أحمل أحزاني بهذا الشكل المروع ، ولولا ضياعي بين وجهي ، وبطالتي ، لكان لحنان في حياتي ثمة صورة طيبة غير هذه ، وكنت أحسبها ضيفة مسكينة ، أملك نحوها كمية حب عظيمة ، لم أستطع ليوم واحد أن أضمها خلف عيوني ، وكانت تحس بهذا وتضحك ، وتحس به وتهزأ من عذابها ، وكنت أمامها أتخيل أمي ونداوة وجهها ، ثم يجيء وجه حنان ، وأحس بفارق غريب ، يقربني الى الجنون ، ويبصق في ذاتي ، وحينها أمسك رأسي ، لئلا أجن .

ـ لقد تقبلتها في حياتي رغم هذا .

وعدت أحمل حزني ، وكان يثقلني ، وكرهت أبي ، ثم سألته ذات صدفة مخمورة عن رذالة النساء ، وكان يصفعني ـ ربما دون سبب ـ ويبصق في عيوني ويصرخ في خبائة :

ـ من أنت أيها البشع ؟

ونسيت أن دموعي تزيد وجهي بشاعة ، وتزيده بهجة ، وتركتها تتعرج بين نتوءات وجهي ، وتصرخ دون صوتي بأني أموت ببطء بعد أمي ، وان أبي ينام بين نسائه ويحلم ، وكنت أحس بوجه حنان ، وأحلم في بحة صوتها (رغم قباحتها) فأهدأ مثل طفل صغير ، وأبدأ في النوم ، كأن بصاق أبي مجرد شيء فوق وجهي .

وكان يغلبني النعاس ، وصورة أمي لم تزل فوق عيني ، وكنت أكتفي بأن حنان تحمل مثلي بقية انتظار لكل شيء نعيشه ، وحين صحوت من النوم وجدتني لم أنم غير ساعة واحدة ، كنت فيها أداعب وجه أمي ، وجه حنان ، وأبصق في هيئة منزلنا ، وجه أبي ، ونظرت الى سقف الغرفة ، وكان متربا ، وأعطيت رأسي لوسادتي كي أنام مرة ثانية ، حيث لم أستطع .

ثم تكورت على هيئة رجل يضربونه ، وحاولت أن أجازف في خروجي ، وأجلس في مقهى محلتنا ، لينظرني أصدقائي ، وليسخر مني من يسخر ، وليبصق في وجهي من يرغب ، لكن أبي يمنعني بمثل هذه الحدة :

ـ خروجك معناه ألا تعود ، أتريدهم يضحكون منا ؟

وكنت بهذا أعود الى غرفتي ، وأجلس مثل طفل يتبول ، وأنظر في جدران الغرفة كأنها تضحك مني بشراهة ، وما كنت أصرخ فيها ، حيث اكتفيت بتلك الاهانة ، وأرضيت نفسي بآخر ما نزفته من صبر .

وقلت لنفسي : اني مهان ، وان خروجي اهانة لغيري ، وان مكاني هنا ، وحاولت أن أرتضيه ، لعل جزالة ايماني تهيىء لي فرصة طيبة ، وكنت بهذا أحس بلذة البكاء .

بغداد

عبد الستار ناصر

صدر حديثا :

تشريح جثة الاستعمار

تأليف غي دوبوشير

ترجمة ادوار الخراط

هذا الكتاب الجديد محاولة لتعريف الاستعمار واثبات انه ظاهرة اوروبية محض ، وهو يتلمس الصلة بين التعمير والاستعمار ، ويعقد فصلا مطولا عن التفرقة بين الاستعمار والامبريالية ، ثم يشرح كيف بسطت المسيحية ظلها على اوروبا ، وصلة ذلك بالغزوات التي كانت تتخذ من الدين قناعا لاخفاء الجوانب الاقتصادية الاساسية لظاهرة الاستعمار . ويمثل على ذلك بروح الحروب الصليبية ، في حين يثبت بالبراهين والادلة ان التوسع الاسلامي ليس بظاهرة استعمارية لا من حيث الاسس والاصول ولا من حيث التركيب والبنية .

ويتتبع الكتاب تطور ظاهرة الاستعمار عبر عصر النهضة وبدء ظهور الرأسمالية ويقوم بتحليل عميق للصلات بين الرق وبدء عصر الرأسمالية وظهور الطبقات العاملة والتوسع الرأسمالي في آسيا وافريقيا ، وينتهي بتحليل سقوط ظاهرة الاستعمار .

منشورات دار الآداب